تاريخ ما بين السطور
حب إلى الأبد
رمضان مصطفى سليمان

إيزيانا بوليانا
حين يهاجر النور من القلب

في أقصى السهوب الروسية، حيث تمتد الأرض كصفحة بيضاء تنتظر اعترافات السماء، تقوم ضيعة عتيقة يهمس اسمها كدعاء خافت: إيزيانا بوليانا، أي النور الحنون. لم تكن مجرد أرض أو بيت، بل كانت روحًا تتنفس بين الأشجار، ومحرابًا للكلمة حين تصفو، ومرآة لقلب رجلٍ عاش عمره يفتش عن الصدق كما يفتش العاشق عن وجه حبيبته في العتمة.

كان صاحبها يرى النور في كل شيء، في انكسار الشمس على الثلج، في دمعة طفل، في صمت الكتب القديمة، لكنه كان يقول في إحدى تأملاته: ليس النور في الشمس وحدها، بل في الكلمة الصادقة الأمينة أكثر إشراقًا. وكان يؤمن أن الكلمة إذا صدقت، أضاءت ما لا تضيئه الشمس، وإذا كذبت، أظلمت ما لا تظلمه الليالي.

لكن النور، ككل شيء حي، قد يذبل حين يُخذل.

+

في مساءٍ خريفيٍ بارد، كانت الريح تعزف على نوافذ البيت العتيق لحنًا حزينًا، كأنها تنعي زمنًا لن يعود. جلس الشيخ، وقد أثقلته السنوات حتى صارت كأنها جبل على صدره، يحدّق في الموقد، حيث تتراقص النار كذكريات لا تستقر. كان في الثانية والثمانين، عمرٌ يكفي ليصير الإنسان تاريخًا يمشي على قدمين، أو شبحًا يجرّ ماضيه وراءه.

قال في سره، بصوتٍ بالكاد يسمعه قلبه :

أحقًا انتهى كل شيء ؟ أم أني أنا الذي انتهيت ؟

لم يكن يخاف الموت، فقد تصالح معه منذ زمن، لكنه كان يخاف أن يموت النور في داخله قبل أن يموت الجسد. ذلك النور الذي طالما آمن به، وكتبه، وبشّر به، واعتبره خلاص الإنسان الوحيد.

نهض ببطء، كأن الأرض تمسك قدميه، واتجه نحو نافذة تطل على الحديقة. هناك، تحت شجرة البتولا التي شهدت أول اعتراف حب، وقف طويلًا، يستعيد ذلك اليوم البعيد.

+

كان شابًا حينها، ممتلئًا بالحياة كنبعٍ في الربيع. كان العالم أمامه مفتوحًا، ككتاب لم تُكتب صفحاته بعد. التقاها هناك، بين الظلال والنور، وكانت كأنها قصيدة تمشي على قدمين.

قال لها، يومها، بصوتٍ فيه رجفة العاشق وجرأة الحالم :

صوفي، هل تقبلين الزواج مني ؟

نظرت إليه بعينين فيهما وعد ودهشة، وقالت :

إذا كنتَ تعدني بأن تظل صادقًا معي، دائمًا.

ابتسم، ولم يكن يعلم أن هذا الوعد، البسيط في ظاهره، سيكون أثقل من كل الكتب التي سيكتبها.

+

عاد إلى الحاضر، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة.

—أين ضاع ذلك الوعد يا صوفي ؟ أين ضاع النور ؟

دخلت هي الغرفة، بخطواتٍ مترددة، كأنها تخشى أن توقظ شيئًا نائمًا بينهما. لم تكن المرأة نفسها التي أحبها شابًا، ولا هو الرجل ذاته. الزمن لا يسرق الجمال فقط، بل يبدّل الأرواح.

قالت، بنبرةٍ حاولت أن تبدو عادية :

الجو بارد، يجب أن تستريح.

نظر إليها طويلًا، كأنه يراها لأول مرة، أو كأنه يبحث في ملامحها عن شيء ضائع.

أتعلمين، يا صوفي، كنت أظن أن النور يسكن هنا، بيننا.

صمتت، كأن الكلمات سقطت في بئرٍ عميق.

ماذا تقصد ؟

أقصد، أني لم أعد أراه.

+

في داخله، كان صراعٌ عنيف، لا يسمعه أحد. كان يقول لنفسه :

كيف يمكن للحب أن يبقى، بينما تموت الثقة؟ كيف يمكن للقلب أن يستمر في الخفقان، إذا انطفأ فيه النور ؟ أأبقى هنا، في بيتٍ لم يعد يشبهني ؟ أم أرحل، بحثًا عن كلمة صادقة، ولو في أقصى الأرض ؟

ثم همس، كأنما يخاطب ظله :

لقد لازمتني هذه الفكرة عشرين عامًا، كنت أؤجلها، أهرب منها، أعلّل نفسي بالأمل. لكن الأمل، حين يطول انتظاره، يتحول إلى وهم، وأنا تعبت من الأوهام .

+

اقتربت صوفي منه، وقالت :

أنت متعب، لا تتخذ قراراتك الآن.

ابتسم ابتسامة حزينة :

بل أنا متعب منذ عشرين عامًا، واليوم فقط قررت أن أصدق نفسي.

`تريد أن تتركني ؟

أريد أن أجد نفسي.

وهل نفسك ليست هنا ؟

كانت، يوم كانت الكلمة صادقة.

تراجعَت خطوة، كأن الكلمات أصابتها.

أنت تظلمني،

ربما، لكني أظلم نفسي أكثر إن بقيت.

+

جلس على الكرسي، وأغمض عينيه. تدفقت الأفكار كالسيل :

لم يمت حبها في قلبي، بل ازداد تعقيدًا. لكن الحب وحده لا يكفي. الحب بدون صدق، جسد بلا روح. وأنا لم أعد أحتمل هذا الفراغ. أريد نورًا، حتى لو كان بعيدًا، حتى لو كان مستحيلًا .

وتردد في داخله بيتٌ من الشعر، كأنه صدى روحه :

ومن لم يعانِ في الحياةِ تلوّنًا تلوّنَ طبعُهُ، ومالَ عنِ الحقِّ ميلَا

ثم أردف، كأن الحكمة تسعفه :

الصدق نجاة، والكذب هلاك، ومن عاش على غير صدق، مات قبل أن يُدفن .

+

في تلك الليلة، لم ينم. كان يمشي في أروقة البيت، يلمس الجدران، الكتب، الطاولات، كأنه يودّعها واحدًا واحدًا. كل زاوية كانت تحمل ذكرى، وكل ذكرى كانت تحمل وجعًا.

توقف أمام مكتبه، حيث كتب أعظم أفكاره، وأصدق كلماته. قال بصوتٍ خافت :

يا كلماتي، هل خذلتك؟ أم خذلتني الحياة ؟

ثم جلس، وكتب رسالة قصيرة :

إلى من تبقى من النور في هذا البيت، أنا لا أهرب منكم، بل أهرب إليّ. لقد ضاع مني شيء لا أستطيع العيش بدونه: الصدق. وإن لم أجده هنا، فسأبحث عنه في المجهول .سامحوني، إن كان في الرحيل خلاصٌ، فإني ذاهب إليه.

+

مع أول خيطٍ للفجر، كان قد حسم أمره.

ارتدى معطفه، وحمل عصاه، ووقف عند الباب. تردد لحظة، ثم التفت إلى الداخل، كأنما ينتظر أن يناديه أحد.

لكن الصمت كان أبلغ من كل النداءات.

فتح الباب، وخرج.

كانت الأرض مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج، كأنها صفحة جديدة، بيضاء، لم تُكتب بعد. مشى ببطء، لكنه كان يشعر بخفة غريبة، كأن عبئًا ثقيلاً انزاح عن روحه.

قال في نفسه :

ربما يكون الطريق طويلًا، وربما لا أصل. لكن يكفيني أني بدأت.

ثم تمتم :

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومِ فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

+

في الداخل، كانت صوفي قد استيقظت، وشعرت بفراغٍ غريب. نهضت مسرعة، ونادت :

أين أنت ؟

لم يجبها أحد.

وجدت الرسالة، قرأتها، وانهارت على الكرسي. لم تبكِ فورًا، بل بقيت صامتة، كأنها تحاول أن تفهم ما حدث.

هل كان كل هذا الألم بيننا، وأنا لا أراه ؟

ثم انفجرت دموعها، وقالت :

كنتُ أظن أن الحب يكفي،

أما هو، فكان يمضي في طريقه، لا يعلم إلى أين، لكنه يعلم لماذا.

كان يبحث عن النور، ذلك النور الذي لا يخون، ولا يكذب، ولا يخذل.

نور الكلمة الصادقة.

+

وفي أعماقه، كان صوتٌ خافت يهمس :

ربما لم تفقد النور يا شيخ، ربما النور هو الذي غادر حين لم تعد القلوب تحتمله .

لكن صوتًا آخر، أكثر قوة، أجاب :

بل النور لا يغادر، نحن الذين نغادره حين نكف عن الصدق .

وهكذا، بين الرحيل والبقاء، بين الحب والخذلان، بين النور والظلام، بدأ فصلٌ جديد من حكاية رجلٍ أدرك متأخرًا أن أعظم الخسارات ليست في فقد الأحبة، بل في فقد الحقيقة بينهم.

وأن الكلمة، حين تموت، لا يحييها شيء.

إلا الصدق، أو الرحيل.

ليلٌ على حافة الرحيل
اعترافات تولستوي الأخيرة

كانت ليلةً تتدلّى من خاصرة الخريف كنجمةٍ متعبة، ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر عام 1910. في البيت الريفي العتيق، حيث تتشابك أنفاس الخشب مع صمت الحقول، كان الكونت ليون تولستوي ممدّدًا في فراشه، وقد أسلم جسده الواهن لنعاسٍ ليس كنعاس الناس، بل كغيبوبة فنانٍ تُسقى روحه فيها من ينابيع الخيال، فتتفتح في أعماقه صورٌ كأنها رؤى أنبياء، وتهمس له الأفكار كما تهمس الريح لأوراق الشجر في المساء.

كان نومه عميقًا، لكنه لم يكن خاليًا من الوعي. ففي أعماق هذا السكون، كانت ذاكرته تستعيد وجوهًا وأصواتًا، صفحاتٍ من عمرٍ طويلٍ امتد بين المجد والعذاب. رأى نفسه شابًا، يسير بين جنودٍ في ساحات الحرب، ثم شيخًا، يكتب على ضوء شمعةٍ مرتجفة، كأنها آخر ما تبقّى من عمره.

لكن هذا الحلم انكسر فجأة. صوتٌ خافت، مألوفٌ حدّ الألم، تسلّل إلى أذنه. فتح عينيه ببطء، كمن يخرج من بئرٍ عميقة، وراح يصغي. كانت الساعة تقارب الثالثة فجرًا، والبيت غارقٌ في صمتٍ كثيف. غير أن هناك حركة، همس أوراق، وقع خطواتٍ حذرة.

ثم رأى. شعاعٌ رفيع من الضوء يتسرّب من تحت بابٍ مغلق، باب مكتبه.

انتفض قلبه. جلس على فراشه، وقد ارتسمت على وجهه ملامح حزنٍ قديم، كأن هذا المشهد تكرّر في ذاكرته ألف مرة.

وهمس لنفسه، بصوتٍ كاد يختنق :

إنها، إنها هناك، في غرفة مكتبي.

سكت لحظة، ثم أطرق رأسه :

تفتّش أوراقي، تقرأ يومياتي،

وارتجف صوته :

يا إلهي، لو كان غيرها، لو كان غريبًا، لما شعرتُ بهذا النزيف في داخلي،

ثم رفع عينيه نحو العتمة، وكأنه يخاطبها رغم الجدران: صوفيا، سونيا، يا حبيبة العمر، كيف تهبطين إلى هذا الدرك؟ كيف تتحوّل المحبة إلى رقابة ؟

وسكت، ثم تمتم، وكأن الكلمات تنزف منه :

أيكون الحب سجنًا ؟ أم أنا الذي أسأتُ فهمه ؟

في داخله، كان الحوار يحتدم، لا بينه وبينها، بل بينه وبين نفسه. كان هناك صوتان: أحدهما يبرّر، والآخر يتّهم.

قال الصوت الأول :

إنها تخاف عليك، تخاف أن تفقدك، تخاف أن تخسر مكانها في قلبك،

وردّ الآخر بمرارة :

لكنها تخنقني، تسرقني من نفسي، تريد أن تمسك أفكاري قبل أن أولدها، تريد أن تقتل كلماتي وهي بعدُ أجنة في رأسي،

ثم استند إلى الوسادة، وأغمض عينيه، وكأنّه يهرب من ذاته :

يا صوفيا، لماذا ؟ لماذا أنتِ بالذات ؟

وفي داخله ، انبثق اعترافٌ موجع :

أنا أحبك، نعم ، أحبك كما لم أحب امرأةً من قبل، أعرف أنكِ تحبينني، لكن حبكِ صار قيدًا، صار جدارًا، صار ظلًا يلاحقني حتى في وحدتي،

وتذكّر قولًا عربيًا قديمًا :

إذا زاد الحب عن حدّه، انقلب إلى ضدّه.

فابتسم ابتسامةً حزينة :

أهذه هي حكايتنا ؟

ثم عاد الصمت يخيّم، لكن داخله لم يهدأ.

كان يفكّر :

ما قيمة الحرية إن كنتُ عبدًا في بيتي ؟ وما معنى الكتابة إن كنتُ أكتب تحت عينٍ تراقبني ؟

وفي لحظة صفاءٍ قاسية، قال لنفسه :

لقد تعبت، تعبت من هذا الحصار،

ثم نهض ببطء، واقترب من النافذة. كان الليل ممتدًا كبحرٍ أسود، والريح تعوي بين الأشجار.

وهمس :

ربما كان الرحيل هو الخلاص.

ثم عاد إلى فراشه، لكنه لم ينم.

في داخله، كان قرارٌ يتشكّل، ببطءٍ وثقل، كصخرةٍ تسقط في بئر.

+

في الليلة التالية، لم يكن البيت مختلفًا، لكن قلبه كان قد تغيّر.

ارتدى معطفه الثقيل، ووقف لحظةً عند الباب، كمن يودّع عمرًا كاملًا.

نظر إلى الغرفة : الكتب، الأوراق، الطاولة التي شهدت ولادة أعظم رواياته،

ثم همس :

وداعًا،

لكن الكلمة لم تكن للغرفة وحدها.

كانت لصوفيا.

كانت لحياته كلها.

خرج.

وكان في الثانية والثمانين، جسدٌ أثقلته السنوات، وأمراضٌ تتربّص به من كل جانب. ومع ذلك، كان في خطاه شيءٌ من عناد الشباب.

لفحته برودة الليل، كأنها صفعةٌ من القدر، لكنه لم يتراجع.

الريح تعصف، والثلج يتساقط، يغطي الأرض، وحتى الكلمات، كأنها إن خرجت من الشفاه تجمّدت قبل أن تُسمع.

ومع ذلك، مضى. بلا وجهة واضحة. بلا خطة.

فقط رغبة واحدة :

أن يبتعد. أن يصنع بينه وبينها جدارًا لا يخترقه الزمن.

+

وفي الطريق، بدأ الحوار الداخلي من جديد.

قال لنفسه :

أأهرب ؟ أم أبحث عن نفسي ؟

ثم أجاب :

ربما الاثنان معًا.

وتذكّر بيتًا من الشعر:

ومن لم يذق مرّ التعلم ساعةً تجرّع ذلّ الجهل طول حياته

فابتسم:

وأنا، أتعلّم الآن، في آخر العمر،

ثم سأل نفسه :

لكن، هل تأخرت ؟

جاءه الجواب كريحٍ باردة :

ربما، لكن التأخر خيرٌ من الجمود.

+

كان يسير، وكل خطوةٍ تفتح في داخله بابًا من الذكريات.

رأى صوفيا يوم لقائهما الأول، عينيها المضيئتين، ابتسامتها التي كانت كالوعد،

ثم رأى وجهها الآن، مثقلًا بالشك، مشدودًا بالخوف.

وهمس :

ما الذي فعلناه بأنفسنا ؟

ثم تذكّر قول الحكمة : القلوب إذا أُكرهت عميت.

وقال :

نعم، لقد أكرهنا قلوبنا، حتى عميت.

وفي لحظة صدقٍ جارحة، اعترف :

أنا أيضًا لستُ بريئًا،

توقّف. ثم أكمل :

ربما كنتُ قاسيًا، منشغلًا، غارقًا في عالمي،

ثم تنهد :

لكن، هل كان ذلك يبرّر أن تتحوّل إلى ظلٍّ يلاحقني؟

+

الليل كان طويلًا، لكن داخله أطول.

وكان يسير، لا على الأرض فقط، بل في أعماق ذاته.

وكان كل شيء فيه يقول :

هذا الرحيل ليس نهاية، بل اعتراف.

اعتراف بأن الحب وحده لا يكفي.

وأن الحرية ليست رفاهية، بل ضرورة.

وأن الإنسان، حتى في شيخوخته، يظل يبحث عن نفسه.

+

وقبل أن يبتعد كثيرًا، التفت مرةً أخيرة، وكأن قلبه شدّه إلى الوراء.

نظر إلى البيت البعيد، وقال :

يا صوفيا،

ثم سكت. لم يكمل. لأن بعض الكلمات، حين تتأخر، لا تُقال.

واكتفى بأن همس، كأنما يخاطب الريح :

سامحيني، أو لا تسامحيني، لكن دعيني أكون أنا.

ثم مضى.

وكان الليل شاهدًا، والريح شاهدة، والثلج شاهدًا.

وكانت تلك الليلة، بداية النهاية.

سيرة الروح بين الحب والفرار

في تلك الليلة التي بدت كأنها انشقاقٌ خفيّ في جسد الزمن، ليلةٍ يتهجّى فيها الصمت أسماءه ببطء، جلس ليو تولستوي في العربة التي أعدّتها له ابنته، كمن يجلس في نعشٍ متحرّك، لا يفرّ من العالم بقدر ما يفرّ من نفسه. كانت العربة تمضي في ظلمةٍ كثيفة، تشبه الحبر الذي سال من قلمه عقودًا، لكنّه هذه المرّة لم يكن يكتب، بل كان يُمحى.

برد الليل تسلّل إلى عظامه، غير أنّ البرد الحقيقي كان في صدره، حيث الحبّ القديم ما زال مشتعلاً كجمرةٍ تأبى الرماد. أغمض عينيه، فرأى وجهها، واضحًا كأنّه لم يغب يومًا: صوفيا.

همس، كأنّه يخاطب شبحًا يسكنه :

سأظل رغم هذا أحبك، حتى آخر قطرة من عمري. ستبقين صورتي الأخيرة حين يطفئ الموت عيني. لكن، لماذا يا صوفيا؟ لماذا قتلتِ النور؟ لماذا قتلتِني وقتلتِ نفسك ؟

تردّد صدى صوته في أعماقه، لا في الفضاء. كان الحوار الآن داخليًا، عميقًا، كأنّه انقسام بين روحين في جسد واحد. جزءٌ منه يدافع عنها، وجزءٌ آخر يطالبها بالاعتراف.

+

عاد الزمن به إلى الوراء، إلى يومٍ بعيد، يومٍ لم يكن فيه سوى شابٍ في السابعة والعشرين، يطارد المجد كفارسٍ يحلم بالخلود، حين رآها لأول مرة. كانت طفلةً في الحادية عشرة، لكن عينيها لم تكونا لطفلة؛ كان فيهما ذلك البريق الذي يُربك الحكماء.

كانت تجلس في ركنٍ هادئ، تمسك كتابًا له، تقرأه كما لو كانت تلتهمه. لم تكن تقرأ الكلمات، بل تعيشها، تسكنها، تتنفسها. حين

رفعت عينيها إليه، شعر بشيءٍ يهتز في داخله، شيءٍ لم يكن حبًا بعد، لكنه كان وعدًا غامضًا.

قال في نفسه آنذاك :

هذه الطفلة، ستصبح يومًا قصتي التي لا تنتهي.

وكأنّ القدر كان يصغي.

+

كان نجمه يعلو سريعًا في سماء الأدب الروسي، ككوكبٍ لا يعرف السكون. كلماته كانت تُقرأ في الصالونات، وتُناقش في المجالس، ويُختلف حولها كما يُختلف حول الحقائق الكبرى. لكنه، رغم كل ذلك، كان يشعر بفراغٍ خفيّ، كأنّ الشهرة لا تملأ شيئًا عميقًا في داخله.

ثم جاءت الحرب. في حصار سيفاستوبول، حين ضاقت الأرض بالجنود، وتراجعت الحامية، واشتدّ الخناق، وقف تولستوي بين قلّةٍ من الرجال، ورفض الانسحاب. لم يكن ذلك تحديًا للقيادة بقدر ما كان تحديًا للمعنى.

قال أحد الجنود :

سيدي، المعركة خاسرة .

أجابه تولستوي، بنبرةٍ هادئة كأنها حكمٌ نهائي :

بعض المعارك لا تُخاض من أجل النصر، بل من أجل ألا نخسر أنفسنا.

وصل الخبر إلى القيصر ألكسندر الثاني، فاستشاط قلقًا، وقال :

هذا جنون! لقد خسرنا المعركة، لكن لا يجب أن نخسر هذا الشاب. قولوا له: أنا القيصر، وآمره بالانسحاب فورًا.

حين وصله الأمر، وقف تولستوي طويلًا، صامتًا. كان بين طاعته للقيصر وولائه لفكرته، وبين الحياة والموت، وبين المجد والفناء.

وفي تلك اللحظة، خطرت له صورة صوفيا.

قال في نفسه :

إن متُّ الآن، فلن أكتبها.

فانسحب.

+

مرت السنوات، وكبرت الطفلة، وصارت امرأةً تحمل ملامح الحلم الأول. تزوّجها، لا كاتبًا يتزوج قارئة، بل روحًا تجد في أخرى مرآتها.

كانت صوفيا أكثر من زوجة؛ كانت ناسخة مخطوطاته، شريكة أفكاره، حافظته الحية. كانت تكتب نصوصه بيدٍ مرتجفة من الإعجاب، وكأنها تعيد خلقها من جديد.

وفي تلك الأيام، كتب في مذكراته :

الحبّ ليس أن تجد من يكملك، بل من يكشف نقصك، فتسعى لأن تصير جديرًا به.

وكان يراها كذلك: مرآةً تكشفه، لا ظلًا يتبعه.

+

لكن الحبّ، حين يُثقل بالزمن، يتحوّل أحيانًا إلى عبءٍ لا يُحتمل.

بدأت الشقوق تظهر، خفيةً في البداية، ثم واضحة كجروحٍ لا تندمل. كانت صوفيا تخاف أن تفقده، وكان هو يخاف أن يُمتلك. هي أرادته لها وحدها، وهو أراد أن يكون للعالم.

في إحدى الليالي، دار بينهما حوارٌ ثقيل :

قالت، وعيناها ممتلئتان :

أنت لا تعيش معي، أنت تعيش في كتبك.

أجابها، بصوتٍ خافت :

لأن كتبي هي الشيء الوحيد الذي لا يطلب مني أن أكون أقلّ مما أنا.

صرخت :

وأنا ؟

سكت طويلًا، ثم قال :

أنتِ، تطلبين مني أن أكون لكِ فقط .

فهمت، لكنّها لم تقبل.

+

ومع السنوات، صار البيت ساحة صراعٍ صامت، تتراكم فيه الكلمات التي لم تُقل، والدموع التي لم تُبك. تحوّل الحبّ إلى ذكرى، والذكرى إلى ألم.

وفي داخله، كان تولستوي ينقسم :

هل أخطأت حين أحببتها ؟ أم أخطأت حين ظننت أن الحبّ يكفي ؟

ثم يجيب نفسه :

الحبّ بذرة، لكنه يحتاج إلى أرضٍ لا تأكله.

+

وفي تلك الليلة، ليلة الفرار، عاد كل ذلك دفعةً واحدة. كانت العربة تمضي، وهو يغوص في ذاكرته كمن يغرق بإرادته.

قال في داخله :

يا صوفيا، لم أكن أريد أن أهرب منكِ، بل من ذلك الرجل الذي صرتُه بجانبك.

ثم تذكّر بيتًا من الشعر، كأنه يصف حاله :

أحبكِ حبًّا لو تحبين مثلهُ أصابكِ من وجدٍ عليّ جنونُ

ابتسم بمرارة، وأضاف :

لكن الجنون كان من نصيبي وحدي.

+

كان الليل يوشك أن ينقضي، والفجر يتسلّل كخيطٍ خافت. شعر بثقلٍ في صدره، كأنّ النهاية تقترب.

قال في نفسه :

ربما كان الحبّ امتحانًا، لا لننجح فيه، بل لنعرف أنفسنا.

ثم همس، كأنّه يخاطبها للمرة الأخيرة :

سامحيني، أو لا تسامحيني. لكن اعلمي أنني لم أتوقف يومًا عن حبك.

+

وفي لحظةٍ بين الوعي والغيبوبة، رأى صوفيا، لا كما كانت في آخر أيامهما، بل كما كانت أول مرة: طفلةً بعينين تلمعان، تقرأ كتابًا له.

اقتربت منه، وقالت :

لماذا لم تبقَ ؟

أجابها، بصوتٍ خافت :

لأنني لو بقيت، لكنتُ فقدتُ نفسي .

سألته :

وهل وجدتها ؟

سكت. ثم قال :

وجدتُ الطريق، لكني لم أصل.

+

ومع أول خيطٍ من نور، أسلم تولستوي روحه، ككاتبٍ أنهى آخر سطرٍ في روايةٍ لم تكتمل.

وبقي السؤال معلّقًا، كما كل الأسئلة العظيمة :

هل كان الحبّ خلاصًا، أم قدرًا لا مهرب منه ؟

+

وما الحبّ إلا للحبيب الأوّلِ

وإن كثر العشّاق في الناس أو قلّوا

لكن الحقيقة الأعمق، التي أدركها متأخرًا :

أن الحبّ لا يموت، بل يتحوّل، أحيانًا إلى ألمٍ يكتب أعظم الروايات

في دهاليز الروح
طفولة تتفتح ومراهقة تتوهج

كان العام يمضي ببطءٍ مهيب، كأنه عربة ثقيلة تجرّها خيول الزمن فوق سهوب روسيا الواسعة، حين صدر له آخر كتبه عام 1856، بعنوان طفولة ومراهقة .لم يكن كتابًا يُقرأ فحسب، بل كان دهليزًا خفيًا، كثير المنحنيات، زئبقيَّ الضوء، تُضلّل زواياه النفس كما تُضلّل المرايا الوجوه. يبدأ ذلك الدهليز من براءةٍ غضّة، من ابتسامة طفلٍ لا يعرف العالم إلا كحلمٍ ناعم، ثم يمتد، يتشعب، يتعقّد، حتى ينتهي عند حافة المراهقة، حيث القلق يتوهج، والروح تصير كغابةٍ تهمس فيها الرياح بأسرارٍ لا تُفهم.

في ذلك الزمن، كانت صوفي أندريفنا تقف عند مدخل هذا الدهليز. لم تكن قد تجاوزت الحادية عشرة، لكنها كانت تحمل في صدرها قلبًا أوسع من عمرها، وعينين تستقبلان العالم بشغفٍ متوتر، كأنهما تخشيان أن يفوتهما شيء.

+

زارهم يومًا، ذلك الشاب الذي كثر عنه الحديث. كان الطريق إلى ضيعتهم طويلًا، عشرات الأميال تمتد بين غابات الصنوبر وسهول القمح، لكنها بدت، في روسيا الشاسعة، كأنها مجرد خطوةٍ في صمتٍ أبدي. جاء ممتطيًا حضوره قبل جواده، يحمل معه شيئًا من ضجيج المدن، وشيئًا من صمت الكتب.

في تلك الليلة، جلست صوفيا تكتب في يومياتها، وكان الحبر يسيل كاعترافٍ خجول :

كنت أسمع اسمه يتردد كثيرًا في أحاديث أبي وأمي. لم يكن مجرد اسم، بل كان كأنه فكرة تمشي على قدمين. قالوا إنه ثري، من أسرةٍ ضاربة الجذور في تربة روسيا، كأنها شجرة لا تُقتلع. كان أبي ينتقد أفكاره، يراها متقدمة حدّ التهور، بينما كانت أمي—وأنا مثلها—نجد فيها نورًا غريبًا، كأنها نافذة تُفتح على عالمٍ لم نره بعد.

وتذكرت صوفيا تلك الليلة التي احتدم فيها الحوار بين أبويها. كان الموقد يشتعل، والنار ترقص كأنها تشارك في النقاش.

قالت الأم، بنبرةٍ مزيجها الإعجاب والقلق :

لو بلغ هذا الفتى منصب الوزارة، لأقنع القيصر بإصلاحاتٍ جذرية. روسيا تحتاج إلى من يهزّها من سباتها، وهو يملك الأفكار.

رد الأب، وهو يضمّ معطفه حول كتفيه كأنه يقي نفسه برد الفكرة :

أنت مخطئة يا عزيزتي. لقد ارتكب خطأً فاحشًا حين حرّر عبيد مزارعه. أيُّ نظامٍ يبقى إن بدأ كلُّ نبيلٍ يفعل ذلك ؟

ابتسمت الأم، ابتسامةً فيها شيء من الحكمة وشيء من التحدي :

لم يُعاقبه القيصر، لأنه سمع ما قيل له في برلين ولندن. الصحافيون هناك لم يجاملوا. سألوه :

أما آن لروسيا أن تُنهي العبودية ؟ أتبقى وحدها في أوروبا أسيرة هذا العار ؟

سكت الأب لحظة، ثم قال بنبرةٍ فيها شيء من الشك :

كانت مسرحية، من تدبير الإنجليز لإحراجه.

اقتربت الأم منه، وهمست كأنها تزرع فكرة في قلبه :

وربما كانت الحقيقة تتخفّى في ثوب المسرحية.

ثم أضافت، وقد تحوّل الحديث فجأة إلى شأنٍ آخر :

إن زارنا، فلا تُجادله كثيرًا.

نظر إليها الأب متعجبًا :

ولماذا ؟ أأنافِق شابًا ؟ أنا صريح، وهو كذلك.

ابتسمت الأم ابتسامةً خفيفة، وقالت بصوتٍ أخفض :

لأنه... قد يكون زوجًا مناسبًا لإحدى بناتنا.

هنا تغيّر وجه الأب، كأن الفكرة نزلت عليه فجأة :

لدينا ثلاث بنات. كلهن جميلات، مثقفات، وثريات. والخطّاب لا ينقطعون.

قالت الأم :

لو طلب ليزا، سأوافق فورًا. هي الكبرى، ويجب أن تسبق.

+

لكن صوفيا، في عالمها الداخلي، لم تكن تفكر كما تفكر أخواتها. كانت تنظر إلى الأشياء بعمقٍ مختلف، كأنها ترى ما وراء الوجوه.

كتبت في يومياتها، في أول زيارة له :

كنت أريد أن أرى هذا الشاب الذي يكتب تلك الكلمات التي تشبه السحر. كنت أنسخ صفحاتٍ كاملة من رواياته، لا لأحتفظ بها، بل لأحفظها في داخلي. كنت أشعر أن كلماته ليست حبرًا، بل نبضًا.

حين أخبرتهم أمهم بقدومه، صار البيت كخلية نحل. الحديث كله عنه.

قالت ليزا، بنبرة ساخرة :

طويل، عريض... نعم. لكن الوسامة؟ لا أظنها تسكن وجهه.

نظرت إليها صوفيا بدهشة :

من قال هذا ؟ أمي تقول إنه لو تقدّم لأميرة من أسرة القيصر لرحبوا به.

ضحكت ليزا :

من أجل ثروته، لا من أجل وجهه. في سترته العسكرية يبدو كغولٍ خرج من حكايات الأطفال.

اشتعلت صوفيا غضبًا :

هذا هراء! إنه بطل سيفاستوبول ! أليس في ذلك جمال ؟

قالت ليزا، وهي تلوّح بيدها :

أفضل شابًا وسيمًا بلا مجد، على بطلٍ قبيح.

كانت كلمات ليزا كحجارة تُلقى في بحيرة نفس صوفيا، فتثير دوائر من التفكير.

في داخلها، كان صوتٌ آخر يتحدث :

هل الجمال في الوجه ؟ أم في الفكرة ؟ هل العين ترى ما هو ظاهر فقط ؟ أم أن هناك جمالًا خفيًا، لا يُدرك إلا بالقلب ؟

تذكرت بيتًا من الشعر كانت قد حفظته:

وما الحُسنُ في وجهِ الفتى شرفًا لهُ

إذا لم يكن في فعلِهِ والخلائقِ

ثم أضافت في خاطرها :

إنهم يرون أنفه الكبير ، وأنا أرى عينين كالفولاذ. يرون ملامح خشنة، وأنا أرى روحًا مشتعلة.

+

حين وصل، لم يكن وصوله عاديًا. كأن الهواء نفسه تغيّر. دخل بخطواتٍ ثابتة، تحمل ثقل التجربة وخفة الفكر. كان وجهه كما وصفوه - قويًا، غير مألوف - لكن عينيه... كانت فيهما نارٌ صامتة.

وقفت صوفيا تراقبه من بعيد، كأنها تخشى أن تقترب من فكرةٍ طالما سكنتها.

وفي داخلها، بدأ حوارٌ خفي :

أهذا هو؟ أهذا الذي كتب تلك الكلمات ؟ كيف يمكن ليدٍ واحدة أن تحمل هذا التناقض - قسوة الملامح، ورقة المعاني ؟

اقترب منها، وحيّاها. نظر في عينيها مباشرة. كان نظره عميقًا، كأنه يبحث عن شيء.

ارتبكت. شعرت أن عينيه تخترقان أفكارها.

قال لها بصوتٍ هادئ :

هل تقرئين ؟

ترددت، ثم قالت :

أقرأ... وأحاول أن أفهم.

ابتسم ابتسامة خفيفة :

الفهم رحلة، لا محطة.

+

في تلك الليلة، لم تنم صوفيا. جلست قرب النافذة، والقمر يسكب ضوءه على الورق.

كتبت :

اليوم رأيته. ليس كما قالوا. وليس كما تخيلت. هو شيءٌ بين الاثنين، أو ربما شيءٌ آخر تمامًا. في حضوره، شعرت أن العالم أوسع، وأن النفس أعمق.

ثم توقفت، وأغمضت عينيها، وكأنها تغوص في ذاتها.

لماذا اهتز قلبي ؟ أهو الإعجاب ؟ أم الفضول ؟ أم أن هناك شيئًا أكبر... شيئًا لا أملك له اسمًا ؟

وتذكرت قولًا سمعته :

القلبُ يُبصرُ ما لا تُبصرُ العينُ

+

في الأيام التالية، صار الحوار بينهما يتعمق. لم يكن حديثًا عابرًا، بل كان كأنه حفرٌ في طبقات الروح.

قال لها يومًا :

الناس يخافون من التغيير، لأنه يكشفهم.

سألته :

وأنت؟ ألا تخاف ؟

أجاب بعد صمت :

أخاف... لكني أمضي.

ثم أضاف :

الشجاعة ليست غياب الخوف، بل القدرة على السير معه.

+

كانت كلماته تتسلل إلى داخلها، كأنها بذور تُزرع في أرضٍ خصبة.

وفي إحدى لحظات التأمل، كتبت :

أشعر أنني أقف على عتبة شيءٍ جديد. لم أعد تلك الطفلة التي كانت تنظر إلى العالم كحكاية بسيطة. هناك عمق، هناك صراع، هناك جمال مؤلم.

ثم ختمت ببيتٍ من الشعر :

ومن لم يذق مرّ التعلم ساعةً تجرّع ذلّ الجهل طولَ حياته

وهكذا، كانت صوفيا تمضي في دهليزها الخاص. لم تعد الطفولة كما كانت، ولم تصل بعد إلى المراهقة الكاملة. كانت في المسافة بينهما، حيث تتكوّن النفس، وتتشكل الهوية.

وكان هو - ذلك الشاب - ليس مجرد زائر، بل كان مرآةً، ترى فيها نفسها للمرة الأولى.

وفي أعماقها، كانت تعرف، دون أن تقول :

هذه البداية.

حين يفتّش القلب عن نور الصدق

لم تكن الحكاية تبدأ من الكلمات، بل من النظرات. نظراتٍ رمادية، ساكنة في ظاهرها، عاصفة في عمقها، كأنها سماء شتوية تتهيأ لانفجار الثلج أو البكاء.

هكذا وصفته الصغيرة صوفيا، ابنة الحادية عشرة، دون أن تدري أنها كانت تلمس جوهر رجل سيظل اسمه محفورًا في ضمير التاريخ :ليو تولستوي.

+

في إحدى رسائل إيفان تورجنيف إلى صديقته بولين فياردو، كتب بصدقٍ لا يخلو من ارتباك:

تولستوي هو أستاذنا جميعًا،

ثم مضى يعترف، لا عن ضعفٍ، بل عن دهشةٍ وجودية: كان إذا دخل معه في جدالٍ حول الشعب الروسي، وحشد كل حججه، وكل ما يظنه صلابة عقلية، يكفي أن يرفع تولستوي عينيه الرماديتين نحوه، حتى يتزعزع اليقين في داخله.

لم تكن تلك نظرات رجلٍ عادي.

كانت أشبه بمرآة، لا تعكس وجهك، بل تعكس ما تخفيه عن نفسك.

قال له تولستوي يومًا، وكأنه يشرح سرّ تلك الهيبة :

أنا لا أنظر إلى الناس، أنا أبحث عن نور الصدق في قلوبهم.

+

لكن صوفيا الصغيرة لم تكن ترى ذلك.

لم تكن قد بلغت العمر الذي تُصبح فيه نظرات الرجال لغزًا نسويًا معقدًا، ولا كانت تحمل في قلبها تلك الحيرة التي تصاحب أنوثةً في طور التفتح. كانت ترى فيه شيئًا آخر، شيئًا أبسط، وأصدق: كانت ترى البطل. الرجل الذي حرّر ثلاثمائة وخمسين أسرة من عبودية العمل بلا أجر في ضيعته يازنايا بوليانا. كانت ترى الكاتب الذي تصير كلماته حياة، لا مجرد حبر.

تكتب في يومياتها، بصوتٍ يختلط فيه الحماس بالبراءة :

حين أُعدّت المائدة للعشاء، طلبتُ من أمي أن أكون أنا من يقدم الطعام للضيف،

كانت تعلم أن هذا شرف. وأن الشرف، في عادات البيوت النبيلة، لا يُمنح للصغار.

أرادت الأم أن تقوم ليزا، الكبرى، بالمهمة. كانت الأم تفكر بعقل المجتمع، لا بقلب الطفلة.

كانت تتمنى أن تقع عين الكونت على ليزا، أو على تانيا.

أما صوفيا ؟ومن أكون أنا ؟

تقولها في يومياتها، وكأنها تسأل العالم كله. لم أكن سوى طفلة غريرة في الحادية عشرة.

لكن الطفلة لم تكن عادية.

كانت تحفظ صفحات من رواياته، وتلقيها عليه كأنها نشيد. لم تكن تقرأه، بل تعيشه.

وحين كانت تتحدث، كانت عيناها تلمعان، لا إعجابًا برجل، بل إيمانًا بفكرة.

أما هو، فكان يعيش صراعًا آخر. في داخله، كانت روسيا بأكملها تتكلم. روسيا الفقراء، روسيا النبلاء، روسيا الكنائس، روسيا الضائعة بين الإيمان والخرافة.

كان يرى الناس لا كما هم، بل كما يمكن أن يكونوا.

وهنا تكمن مأساة الرائي :

أن يرى النور في عالمٍ لا يزال يفضّل الظلام.

في مذكراته، بعد سنوات، كتب :

كنت أبتسم حين أتذكر الأيام الثلاثة التي قضيتها في ضيافة أسرة أندريفنا،

ذلك الحماس الذي كانت تبديه صوفيا الصغيرة لكل كلمة من رواياتي كان يسعدني، لكنني لم أكن أناقشها.

لماذا ؟

لأنه كان يرى فيها طفلة. طفلة لا يمكنها أن تدرك، بعد، تعقيد الأسئلة التي تنهش روحه.

هنا يبدأ الصراع الحقيقي.

ليس بين رجل وطفلة .بل بين وعيين :

وعيٍ لم يولد بعد، ووعيٍ أثقلته الحقيقة.

+

في تلك الليالي، كان تولستوي يجلس وحده، بعد أن ينام الجميع. النار تخفت في المدفأة، والظلال تتراقص على الجدران، كأنها أشباح أفكاره.

كان يحدث نفسه :

ما جدوى الأدب، إن لم يغير العالم ؟ وما جدوى الحقيقة، إن لم تجد من يراها ؟

ثم يتذكر عيني صوفيا. لا لأنها جميلة، بل لأنها كانت صافية. صافية إلى حدٍ مخيف.

+

هل يمكن، سأل نفسه ذات مرة، أن يكون النور الذي أبحث عنه، موجودًا بالفعل في هؤلاء الصغار ؟

وكان الجواب يأتيه من أعماقه، لا من عقله :

النور لا يُكتسب، النور يُولد.

وهنا تتقاطع الحكايات.

حكاية رجل يبحث عن الحقيقة، وحكاية طفلة لا تعرف إلا أن تحبها.

قال أحد الحكماء :

العين التي ترى الخير في الناس ، هي نفسها الخير.

+

وفي ليلةٍ طويلة، كتب تولستوي بيتًا من الشعر، كأنه يترجم صراعه :

أفتش في القلوب عن ضياءٍ وأعلم أن بعض الضوء وهمُ

فإن صدقت عيون الطفل يومًا

فذاك النور، لا يُخفى ولا يُطمسُ

أما صوفيا، فكانت تكتب في يومياتها :

كنت أريده أن ينظر إلي، فقط مرة، كما ينظر إلى الآخرين.

لم تكن تفهم أن الرجل الذي يبحث في أعماق الناس، قد يغفل أحيانًا عن أبسط ما فيهم :

الحب الصامت.

+

وفي زاويةٍ أخرى من الحكاية، كانت الأم تراقب. كانت ترى العالم كما يجب أن يكون، لا كما هو. زواج، نسب، مكانة.

أما القلوب ؟

فذلك شأن الشعراء، لا شأن الحياة.

لكن الحياة، كما يقول المثل العربي :

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

+

مرت السنوات. وتغير كل شيء. إلا تلك اللحظة الصغيرة، حين وقفت طفلة، تحمل طبقًا، وتحمل في قلبها شيئًا أكبر من عمرها.

وهكذا، لا تبقى في الذاكرة الحكايات الكبرى، بل تلك التفاصيل الهامسة.

نظرة . كلمة. أو قلب صغير، رأى النور، دون أن يعرف اسمه.

+

قال ليو تولستوي يومًا :

كل ما أعرفه، أنني لا أعرف شيئًا يقينًا، إلا أن الحقيقة تسكن القلوب الصادقة.

وربما، كانت صوفيا أول من أثبت له ذلك.

حين أزهرت الروح قبل الأوان
صوفيا بين الحلم والحقيقة

ومرّت ستّ سنوات، ستّ سنوات لا تُقاس بعدد الأيام، بل بما خلّفته في القلب من تبدّلات خفيّة، كأن الزمن لم يمضِ، بل نضج في داخلها حتى أثمر روحًا جديدة.

كانت صوفيا قد بلغت السابعة عشرة، غير أنّ العمر في ملامحها لم يكن رقمًا، بل قصيدة مكتملة.

شابةٌ تفيض بالحياة، رشيقة كغصنٍ نديّ، وعيناها تحملان سرًّا لا يُفصح عنه الضوء بسهولة. كان في مشيتها توازن بين براءة لم تكتمل وأنوثة بدأت تُعلن عن نفسها بثقة هادئة، كأنها لا تستأذن أحدًا.

جلست في تلك الليلة إلى مكتبها الخشبي العتيق، وأمسكت بدفتر يومياتها، ذلك الصديق الصامت الذي لا يخون، وكتبت :

لم أنسَ ليون يومًا واحدًا، لم يغب عني، لا حين كنت ألهو كطفلة، ولا حين كنت أتعلم الصمت كأنثى.

مرّت الأعوام، لكنه بقي كما هو، فكرة تسكنني، لا ذكرى تغادرني.

ثم توقفت لحظة، وكأنها تُصغي إلى صوتٍ في داخلها، وأردفت:

حين عاد اليوم بعد غيابٍ طويل، لم أشعر أنه غاب أصلًا، كأن قلبي كان يحتفظ به حيًّا، في زاوية لا يصلها النسيان.

أما هو، فقد كتب في يومياته، بيدٍ لا تخلو من ارتباك رجلٍ بدأ يشعر بما لا يريد الاعتراف به :

كبرت الفتاة، أو لعلني أنا من تأخرت في إدراك ذلك.لم تعد تلك الطفلة التي كانت تنظر إليّ بدهشة بريئة، بل صارت تنظر، وكأنها ترى ما وراءي.

توقف قليلًا، ثم كتب :

في بيت آل أندريفنا، كل واحدة تحمل عالمًا خاصًا بها، ليزا، الكبرى، اختارت طريقها مبكرًا، وارتبطت بضابطٍ ثري، كأنها آثرت الأمان على المغامرة.

تانيا، آه تانيا، روحٌ تائهة بين الشعر والسماء، تحفظ أشعار الخيام كما يُحفظ الدعاء، وتبحث عن الله في كل كتاب، حتى وجدته بطريقتها، حين أسلمت بعد موت أبيها.

ثم تنهد، وكأن الجملة التالية أثقل من أن تُكتب :

أما صوفيا، فهي شيء آخر.

+

تقول صوفيا :

أصررتُ أن أُعدّ المائدة بنفسي، كما فعلت في زيارته الأولى. لا أدري لماذا شعرت أن الأمر ليس مجرد عشاء، بل امتحانٌ خفيّ لشيء لا أجرؤ على تسميته.

كانت تتحرك في المطبخ كأنها ترقص، لا خوفًا، بل توترًا عذبًا. كل طبقٍ تضعه، كانت تضع معه نبضة من قلبها.

كنت أشعر بنظراته، لم تكن كالسابق. كان يطيل النظر، لا بوقاحة، بل بدهشة، كأنني لغزٌ يحاول فهمه.

توقفت لحظة، ثم كتبت ببطء :

تمنيت لو طال العشاء، لو توقّف الزمن عند تلك اللحظة.

لكن الزمن، كما اعتادت أن تفهمه لاحقًا، لا يعرف الرحمة.

بعد العشاء، أصرّ على الرحيل، لم أفهم لماذا كان مستعجلًا، كأن شيئًا يطارده، أو كأنه يهرب، مني ؟

حزنت، لا، لم يكن حزنًا فقط، كان فراغًا مفاجئًا، كأن البيت كله أصبح أوسع من اللازم.

+

تحكي تانيا، وكانت أقرب الناس إلى روح صوفيا :

في تلك الليلة، كنا ننام في غرفة واحدة، وكان بين سريرينا مسافة صغيرة، لكنها كانت كافية لأرى ما لا يُقال.

سكتت قليلًا، ثم أكملت :

ركعت صوفيا على فراشها، كعادتها، لتصلي، لكن تلك الليلة، طال الركوع، طال بشكلٍ غير مألوف.

كانت تانيا تراقبها بصمت، حتى رأت ما لم تتوقع :

دمعة ، دمعة واحدة، لكنها كانت كافية لتفضح سرًّا كاملًا.

نادتها برفق، كأنها تخشى أن تُوقظ شيئًا هشًّا :

صوفيا،

رفعت صوفيا رأسها ببطء، وعيناها لا تزالان غارقتين في عالمٍ آخر :

نعم يا تانيا ؟

ترددت تانيا قليلًا، ثم سألت، مباشرةً كعادتها :

هل وقعتِ في غرام ليون ؟

ساد الصمت ، صمتٌ لم يكن فراغًا، بل امتلاءً بما لا يُقال.

أجابت صوفيا أخيرًا، بصوتٍ خافت :

لستُ أدري،

تقول تانيا:

لم أفهم حينها،

لكن تلك الكلمات، لست أدري، لم تكن جهلًا، بل كانت معرفة تخاف أن تُعلن عن نفسها.

وتضيف :

لم تبدُ متفاجئة من سؤالي، كأنها كانت تنتظر أن يسألها أحد.

+

وفي صباح اليوم التالي، أدركت تانيا الحقيقة، كمن يرى الشمس بعد أن كان يشعر بدفئها فقط :

لقد غرقت صوفيا، لا،

لم تقع في الحب، بل غاصت فيه حتى أذنيها.

+

أما صوفيا، فكانت تلك الليلة بداية حوارٍ داخلي لم ينتهِ :

ما هذا الذي أشعر به ؟ أهو إعجاب؟ أم شوق؟ أم شيء لا اسم له ؟ لماذا حين ينظر إليّ، أشعر أنني أُولد من جديد ؟ ولماذا حين يغيب، أشعر أنني أفقد شيئًا لم أملكه أصلًا ؟

ثم كتبت، وكأنها تعترف لأول مرة :

أخاف منه ، لا لأنه يُؤذيني، بل لأنه يُريني نفسي كما لم أرها من قبل.

وكان في داخلها صوت آخر، أكثر هدوءًا، لكنه أكثر عمقًا :

الحب يا صوفيا، ليس ما يُقال، بل ما يُخشى قوله.

وتذكرت بيتًا كانت تانيا تردده من أشعار الخيام:

لبستُ ثوبَ العمرِ لم أُستشرْ وحِرتُ فيه بين شتّى الفكرْ

فهمست :

وأنا أيضًا، لم أُستشر حين أحببت.

وهنا، تبدأ الحكاية الحقيقية، لا حكاية لقاء، بل حكاية تحوّل. تحوّل فتاةٍ إلى امرأة، لا عبر الزمن، بل عبر شعورٍ واحد، عميق، كفيل بأن يُعيد تشكيل الروح.

+

لم يكن ليون يدرك حين غادر تلك الليلة، أنه لم يترك بيتًا خلفه، بل ترك قلبًا مفتوحًا عليه.

ولم تكن صوفيا تدرك، وهي تمسح دمعتها، أن تلك الدمعة ستكون أول سطر في قصة طويلة، قصة ستُروى يومًا، لا كحكاية حبٍ عادية، بل كأسطورة إنسانية.

قالت في يومياتها بعد أيام :

إن كان هذا حبًا، فأنا لا أريده أن ينتهي .

وإن لم يكن، فليكن ما يكون، المهم أن يبقى هذا الشعور حيًّا.

+

وفي زاوية أخرى من العالم، كتب هو :

أخشى أنني بدأت أرى فيها ما لا يجب أن أراه، وأخشى أكثر، أنني لا أريد أن أتوقف.

وهكذا، دون إعلان، ودون وعد، ودون حتى فهمٍ كامل، بدأت واحدة من أعقد قصص الحب، حبٌ لم يكن مجرد علاقة، بل صراع بين العقل والقلب، بين العمر والزمن، بين ما ينبغي وما يحدث.

قال أحد الحكماء :

إذا دخل الهوى أعمى، خرج العقل أعرج.

لكن ما لم يقله، أن بعض أنواع الحب لا تُفسد العقل، بل تكشفه.

+

و لنمضي أعمق في هذه الحكاية، حيث لا يعود الحب نعمةً الصة ولا مأساةً كاملة، بل مزيجًا من الاثنين، كالحياة نفسها.

حكاية حبٍ استمرت ستةً وأربعين عامًا، بدأت بنظرة، وانتهت، بما سيخلّده التاريخ، لا كقصة سعادة، بل كمأساةٍ سوداء، سكنت الأدب الروسي إلى الأبد.

تنازع القلوب بين البراءة والتجربة
حكاية صوفيا وتولستوي

في تخوم الريف الروسي، حيث تمتد الحقول كسجادة خضراء يغمرها ضوء الغسق، وحيث الأشجار العتيقة تهمس بأسرار القرون، بدأت الحكاية—حكاية قلبين جمعتهما المصادفة، وفرّق بينهما الزمن، ونسجت بينهما الأقدار خيطًا من شوقٍ وخوفٍ وغموض.

كانت صوفيا أندرييفنا، زهرةً غضّة لم تمسسها يد التجربة بعد، في السابعة عشرة من عمرها، تعيش في بيتٍ تحرسه التقاليد كما تحرس الأم طفلها الوليد. لم تعرف من العالم إلا نوافذ تطلّ على الحدائق، وأحاديث نسائية تتردّد بين الجدران، وزيارات نادرة إلى ضيعة جدّها حيث كانت تتأمل السماء وتظنّ أن الحياة لا تتجاوز حدود ما ترى.

أما هو - ليون تولستوي - فكان نهرًا جارفًا، عبر مدنًا وقلوبًا، واختبر الحياة في أقسى وجوهها وأجملها. ضابطٌ ثري، وكاتبٌ تتهافت عليه أوروبا إعجابًا، يحمل في عينيه بريق المغامرة، وفي قلبه تعبًا لا يراه أحد. كان إذا دخل موسكو، تبعته الأضواء كما يتبع الظل صاحبه، وتعلّقت به القلوب كما تتعلّق الفراشات بالنار.

+

كان الفارق بينهما ستة عشر عامًا، لكنه لم يكن رقمًا فحسب، بل كان هوّة بين براءةٍ لم تُخدش، وتجربةٍ أثقلها الزمن.

في إحدى الأمسيات، جلست تانيا—أخت صوفيا—قرب النافذة، تحدّق في الفراغ، وكأنها تقرأ ما لا يُكتب. كانت تعرف الرجال، أو على الأقل تعرف ما يكفي لتخاف منهم. وداخلها صوت خافت يقول :

أيّ حبٍ هذا الذي ينبت في قلبٍ لم يعرف الخيبة ؟ وأيّ رجلٍ هذا الذي يمرّ على القلوب كما تمرّ الريح على الحقول ؟

همست لنفسها، وكأنها تخشى أن تسمعها الجدران :

لا أستطيع أن أبوح لها... كيف أقول لطفلةٍ إن الحب قد يكون هاوية ؟ كيف أشرح لها أن بعض الرجال لا يُحبّون... بل يجرّبون ؟

ثم أغمضت عينيها، واستحضرت صورة تولستوي - تلك النظرات التي لا تستقر، وذلك الغموض الذي يلفّه كما يلفّ الضباب الغابة.

هل يريد ليزا ؟ أم صوفيا ؟ أم أنه لا يريد أحدًا، بل يريد أن يُراد ؟

+

وكانت ليزا - الأخت الكبرى - امرأةً من نارٍ وكبرياء. خطيبها ضابط، وقلبها مغلق بإحكام، لكنها لم تكن غافلة. كانت ترى نظرات تولستوي، وتردّ عليها ببرودٍ محسوب، كأنها تقول :لن أكون واحدة من حكاياتك العابرة.

أما صوفيا، فكانت شيئًا آخر. كانت إذا ذُكر اسمه، اضطرب قلبها كما يضطرب سطح بحيرة حين تلقي فيها الريح حجرًا. لم تفهم ما يحدث لها، لكنها كانت تشعر أن العالم صار أوسع، وأن الحياة بدأت لتوّها.

وفي خلوتها، كانت تكتب في دفترها الصغير :

أهو الحب ؟ أم أن قلبي يكتب اسمه لأنه لا يعرف غيره ؟ لماذا أشعر أنني إن لم أكن له، فلن أكون لأحد ؟

ثم تبكي... دون أن تعرف لماذا.

+

وفي يومٍ بدا عاديًا، لكنه كان يحمل في طيّاته انقلابًا صامتًا، جاء تولستوي إلى دارهم.

استقبلته الأسرة بحفاوةٍ معتادة، ضحكاتٌ خفيفة، وأحاديثٌ مهذّبة، ونظراتٌ متقاطعة تحمل ما لا يُقال.

ليزا حيّته ببرودٍ واضح، كأنها تختبره، كأنها تضعه في ميزان لا يرى كفّتيه إلا هي.

أما صوفيا، فكانت تقف بعيدًا، تراقب، وقلبها يخفق كطائرٍ في قفص.

جلس تولستوي، ثم قال فجأة، وكأنما يلقي حجرًا في ماءٍ راكد :

يسعدني لو تقبلون دعوتي لزيارة ضيعتي... ياسنايا بوليانا.

ارتعش صوت صوفيا قبل أن تنطق، ثم اندفعت كطفلة :

حقًا يا كونت ؟ طالما حلمت برؤيتها !

ابتسم، وقال بنبرةٍ خفيفة :

أخشى ألا تكون على قدر ما سمعتم يا آنسة صوفيا.

تدخلت الأم، بصوتٍ مفعم بالوقار :

بل هي من أشهر الضياع، وقد قيل إن دارها تضم أكثر من أربعين غرفة.

هنا تغيّر شيء في وجهه... ظلّ عابر، كذكرى لا يريدها.

قال بهدوء :

للأسف... لم تعد تلك الدار ملكي.

ساد الصمت.

بعتها ؟

سألت الأم.

ابتسم ابتسامةً باهتة :

لنقل... إنني خسرتها في إحدى ليالي القمار.

شهقت الأم، وقالت :

تخسر دارًا كهذه في جلسة قمار ؟!

ردّ بهدوءٍ يشبه التعب :

انتهى ذلك كله يا سيدتي. لم ألمس طاولة قمار منذ تلك الليلة... ولا أظنني سأفعل.

في تلك اللحظة، شعرت صوفيا بشيء ينكسر داخلها.

كيف يخسر بيتًا ؟ كيف يفرّط في شيءٍ كهذا ؟

لكنها لم ترَ فيه تهوّرًا... بل رأت ألمًا.

وقالت، وعيناها تلمعان بالدموع :

فقدت ياسنايا بوليانا ؟ لماذا ؟

نظر إليها... نظرةً طويلة، كأنما يقرأ روحها.

لأنني كنت أبحث عن شيءٍ آخر... ولم أجده.

وفي داخلها، اشتعلت الأسئلة :

ما الذي يبحث عنه ؟ هل يمكن أن أكون أنا... ذلك الشيء ؟ أم أنني مجرد فصلٍ صغير في كتابٍ طويل؟

قالت الأم، محاولةً استعادة التوازن :

وأين سنقيم إذا زرناك ؟

أجاب :

لي دارٌ صغيرة في الضيعة.

قفزت صوفيا كأنها وجدت جوابًا لا تعرفه :

تكفي! بل هي أكثر من كافية !

ضحك بخفة :

سنقضي معظم الوقت في الحقول والبساتين... هناك، حيث لا أقنعة.

ثم أضاف :

هل أترقبكم الأسبوع القادم ؟

قالت الأم :

بل الذي يليه، لدينا زيارة لجدّ البنات.

لكن صوفيا همست، كأنها تعارض القدر نفسه :

ولِمَ لا يكون الأسبوع القادم ؟

نظرت إليها أمها بحزم، فأطرقت رأسها.

+

وفي تلك الليلة، لم تنم صوفيا.

جلست قرب نافذتها، والقمر يسكب ضوءه على وجهها.

وكتبت :

يا قلب، تمهّل ، فإن الريح التي تأتيك من بعيد ، قد تحمل دفئً وقد تحمل عاصفة.

ثم أضافت، وكأنها تخاطب نفسها :

إن كان حبًا... فليكن قدرًا. وإن كان وهمًا... فليكن جميلًا بما يكفي لأعيشه.

+

أما تولستوي، فكان في مكانٍ آخر من المدينة، يجلس وحيدًا، كأسٌ نصف ممتلئ أمامه، وورقة بيضاء لا يجرؤ على الكتابة فيها.

تمتم :

لماذا هذه الفتاة ؟ لماذا الآن ؟ أأنا أبحث عن الخلاص... أم عن بدايةٍ جديدة ؟

ثم ابتسم بسخرية :

وهل يُمنح أمثالي بداية ؟

وهكذا، بدأت الحكاية. حكاية لم تكن عن حبٍ بسيط، بل عن صراعٍ بين روحين—إحداهما تولد، والأخرى تحاول أن تُولد من جديد.

وفي الأفق، كانت الأيام تُعدّ نفسها... لامتحانٍ لا ينجو منه قلب.

حين تنفّست الأرض حرّيتها
يوميات في حضرة ليو تولستوي

تكتب تانيا في يومياتها، وكأنها تنقش على قلب الزمن لا على صفحات ورق :

قضينا أسبوعًا في ضيعة جدي في إيفتزكي، أسبوعًا بدا في ظاهره عاديًا، لكنه في باطنه كان كرحلة عبور من زمن إلى زمن. كانت صوفي خلاله تتعجل مرور الساعات، كأن الدقائق أثقالٌ على صدرها، لا لشيء إلا لأن في آخر الطريق وعدًا يشتعل في روحها: رؤية الضيعة التي وُلد فيها حبيب القلب.

+

لم تكن صوفي ترى الطريق كما نراه نحن؛ كانت تراه ذاكرةً ممتدة، طريقًا مفروشًا بأثر خطوات رجلٍ أحبّته حتى صار كل ما حوله مقدسًا. كانت الحقول عندها ليست سنابل قمح، بل حكايات نبتت في صمت الطفولة، والمزارع ليست أرضًا تُفلح، بل قلبًا خفق أول مرة تحت شمس روسيا الباردة.

كانت تهمس أحيانًا، وكأنها تخاطب نفسها :

هل يمكن للمكان أن يحتفظ بنبض من مرّوا به ؟ هل سأسمع صوته في الريح ؟ هل ستراني الأشجار كما رأتْه يومًا ؟

وكان في عينيها ذلك البريق الذي لا يخطئه من عرف الحب: مزيج من القلق والرجاء، من الحنين إلى شيء لم تعشه، لكنه يسكنها كذكرى قديمة.

+

أما الضيعة - ياسنايا بوليانا - فكانت في خيالها قصيدة قائمة بذاتها. كانت ترى دارها الكبيرة كقصر من نور، لا لأنه فخم، بل لأنه مأهول بروح رجلٍ أحبّ الإنسان حتى كاد يتماهى معه.

لكن تلك الصورة، كما تقول تانيا، لم تفقد سحرها إلا بعد وفاة تولستوي؛ كأن المكان، حين يغادره صاحبه، يتحول من كائن حي إلى أثر.

عند مشارف تولا، كان هو في انتظارنا.

لم يكن انتظاره عاديًا، بل كان مشهدًا يليق برواية: وقف على صهوة جواده، والريح تعبث بشعره، كأن الطبيعة نفسها تعترف له بالسيادة، لا على الأرض، بل على المعنى.

كنا نحن البنات في مقدمة الركب، أما أمي فكانت بين أبي وبينه، كأنها نقطة توازن بين عالمين: عالم العائلة، وعالم الفكر.

تحركنا، وكان الطريق ليِّنًا، كأن الأرض تفرش نفسها احترامًا لهذا اللقاء.

بعد ساعات من الركوب، وقد بدأ التعب يتسلل في صمت، قطعت أمي ذلك السكون بسؤالٍ بسيط في ظاهره، عميق في ما يكشفه:

ألا تزال ضيعة ياسنايا بوليانا بعيدة عن مكاننا هذا يا كونت تولستوي ؟

ابتسم، ضحك ضحكة خفيفة، فيها شيء من الحكمة وشيء من السخرية، وقال :

سيدتي، لقد تركنا مدخل الضيعة منذ ساعة.

توقفت أمي، ونظرت حولها بدهشة :

يا إلهي ! أكلُّ هذه أرضك يا كونت ؟ إنها إذن أكثر من أربعة آلاف هكتار كما سمعنا !

أجاب، بنبرة هادئة، كأن الرقم لا يعني له شيئًا :

أربعة آلاف وستمئة، على وجه التحديد... وهي أرضي بالاسم فقط.

سكتت أمي لحظة، كأنها تحاول أن تفكك هذا التناقض :

بالاسم ؟ ماذا تعني بهذا يا كونت ؟

هنا، تغيّر وجهه قليلًا. لم يعد مجرد مالك أرض، بل صار إنسانًا يحمل عبئًا داخليًا :

أنا وارثها الوحيد، نعم... لكن أمي هي المتصرفة في كل شيء. وهي لا تكف عن تكرار سؤالٍ واحد: متى تأتي بمن يرفع عني هذا العبء؟ لقد تعبت يا ليون نيكولايفيتش، تعبت.

+

في تلك اللحظة، شعرت صوفي بشيء يتصدع في داخلها. لم يكن الرجل الذي أحبّته مجرد كاتب عظيم، بل إنسان ممزق بين إرثٍ ثقيل، ورؤيةٍ أخلاقية تتجاوز الملكية.

حدثت نفسها :

كيف يمكن لقلبٍ كهذا أن يحتمل كل هذا ؟ كيف يعيش بين أرضٍ يملكها، وفكرةٍ ترفض الامتلاك ؟

تدخلت أمي، بنبرة فيها شيء من المزاح وشيء من النقد :

أحسب يا كونت أنك زدت من متاعب السيدة والدتك الكونتيسة ليوبوفا بعد أن حررت العبيد في مزارعك. حساب أجورهم الآن ليس بالأمر الهين.

ابتسم، لكن ابتسامته لم تكن خفيفة هذه المرة، بل كانت عميقة، كأنها خارجة من يقين لا يتزعزع :

لا شك في هذا يا سيدتي... ولكنها، مثلي، سعيدة بسعادة ثلاثمئة وخمسين أسرة تحررت من أبشع قيد على روح الإنسان :

روح العبودية.

هنا، ساد الصمت.

لم يكن صمتًا فارغًا، بل صمتًا ممتلئًا بالمعنى.

كأن الكلمات التي قيلت كانت أثقل من أن يُجاب عليها فورًا.

+

وفي داخل تولستوي، كان حوار آخر يدور، لا يسمعه أحد :

هل فعلتُ ما يكفي ؟ هل الحرية التي منحتها لهم حقيقية، أم مجرد بداية لألم جديد ؟ أيّهما أثقل: أن تملك إنسانًا، أم أن تتركه يواجه العالم حرًا ؟

كان يعرف أن التحرير ليس نهاية القصة، بل بدايتها. فالحرية، كما كان يراها، ليست هدية، بل مسؤولية.

+

تقول تانيا :

نظرت إلى صوفي، فرأيت في عينيها دمعة لم تسقط. كانت ترى فيه ما لا نراه نحن: رجلًا يصارع نفسه، لا العالم فقط.

+

وفي تلك اللحظة، تذكرت صوفي بيتًا من الشعر العربي، كأن روحًا بعيدة همست به في قلبها :

ومن لم يذق مرّ التعلم ساعةً تجرّع ذلّ الجهل طول حياته

لكنها أعادت صياغته في داخلها :

ومن لم يذق مرّ الحرية يومًا عاش عبدًا وإن ملك الدنيا

+

استأنف الركب سيره، لكن شيئًا ما تغيّر.

لم تعد الأرض مجرد أرض، بل صارت سؤالًا.

لم يعد تولستوي مجرد كونت، بل صار فكرة تمشي على قدمين.

اقتربت صوفي منه قليلًا، وقالت بصوت منخفض، كأنها تخشى أن تفسد لحظة الصدق :

ألا تخاف يا كونت... أن تندم ؟

نظر إليها طويلًا، ثم قال:

الخوف الحقيقي ليس من الندم، بل من أن نعيش حياة لا تستحق أن نندم عليها.

كانت تلك الجملة كالسهم. دخلت قلبها، واستقرت فيه.

+

وفي داخلها، دار حوار طويل :

أهذا هو الرجل الذي أحببته ؟ أم أنني أحب الآن شيئًا أكبر منه ؟ فكرة ؟ روح ؟ طريق ؟

ومع غروب الشمس، كانت الحقول تمتد كبحر من ذهب، والهواء يحمل رائحة الأرض، كأنها تقول :

لقد تغيّر شيء هنا.

+

تكتب تانيا في ختام يومها :

لم يكن ذلك اليوم مجرد رحلة إلى ضيعة، بل كان عبورًا إلى فهم جديد للحياة. رأينا فيه كيف يمكن لإنسان أن يقف بين ما يملك وما يؤمن به، وأن يختار - بهدوء - أن يكون وفيًا لما يؤمن به.

وفي آخر الصفحة، كتبت حكمة، ربما لم تعرف من أين جاءت :

ليس العظيم من يملك الأرض ،بل من يحرر الإنسان منها.

ثم أضافت، بخط أصغر :
وربما... من يحرر نفسه أولًا.

حين نام الكونت على الأريكة
حكاية يومين غيّرا قلب صوفي

بلغوا دار الضيعة عند انحناءة المساء، حين كانت الشمس تذوب في أطراف الغابة كقطعة ذهبٍ قديم، ويمتد الظل فوق الأرض كعباءة ناسكٍ متعب. لم تكن الدار سوى بناءٍ صغيرٍ شُيّد على عجل، كأنما أقيم ليستر خيبةً قديمة، أو ليخبئ ذكرى فادحة. فقد الكونت دار الأسرة الكبرى ذات ليلة، لا في حربٍ ولا في نكبة، بل على مائدة الميسر؛ حيث تتبدل المصائر بصمتٍ، ويخسر الإنسان نفسه قبل أن يخسر داره.

كانت هذه الضيعة، على ضيقها، تحمل روحًا غامضة، كأنها تقول: إن ما يُفقد في الخارج قد يُستعاد في الداخل. استقبلهم الكونت عند العتبة، بوجهٍ لا يشبه الخاسرين، بل يفيض حياةً ونشاطًا، كأن قلبه لم يعرف الهزيمة قط.

قدم لهم من سيقومون على خدمتهم، وكان في صوته حنان الأب ووقار السيد، أما عمتي الكونتس تاتيانا، فكانت كما عهدتها صوفي في طفولتها: صرامةٌ في الملامح، ودفءٌ مخبوء في الأعماق. قالت عنها صوفي في سرها :

إنها ملاكنا الحارس، وإن كانت يدها لا تزال تحفظ طريقها إلى مقعدتي منذ كنت طفلة مشاغبة.

+

لكن الحكاية الحقيقية لم تبدأ عند باب الضيعة، بل في قلب صوفي نفسها.

كانت تحمل حبًا لم تعترف به، حبًا تسلل إليها دون استئذان، واستقر في أعماقها كما تستقر جذور شجرةٍ في تربةٍ عطشى. لم تكن ترى في الكونت رجلًا فحسب، بل عالمًا كاملًا؛ فيه القوة، واللطف، والتواضع، وتلك القدرة الغامضة على أن يجعل الآخرين يشعرون بأنهم أهم ما في الوجود.

كتبت في يومياتها :

كان اسمه وحده يكفي ليجلب الدموع إلى عينيّ، لا دموع حزن، بل دموع فائضة عن قلبٍ لا يحتمل امتلاءه.

+

كانت الضيافة في بيت الضيعة بسيطة، لكنها صادقة كخبزٍ خرج للتو من التنور. القاعة السفلى الكبرى حملت طابع الريف الروسي بكل ما فيه من خشونةٍ جميلة. من السقف تدلت حلقات حديدية عُلّقت بها لفائف اللحم المقدد، كأنها ثمارٌ غريبة تنبت في هواء الشتاء. وكانت المائدة من خشب الجوز الصلب، بلا حشياتٍ ولا ترف، لكنها كانت تحمل أثر الأيادي التي جلست حولها، وضحكت، وعاشت.

أما الأرائك، فكانت مكسوةً ببياضٍ ناصع، كأنها تدعو للراحة لا للزينة.

في ذلك المكان، شعرت صوفي بشيءٍ لم تعرف له اسمًا، لكنه كان أقرب إلى الطمأنينة.

+

قرب العصر، خرجوا إلى البساتين.

كانت الأشجار محمّلة بالخوخ والفراولة، والهواء معطر برائحة الأرض بعد دفء النهار. رأته هناك، الكونت، لا كسيدٍ ولا كنبيل، بل كرجلٍ يعمل بيديه، يجمع الثمار في سلةٍ كبيرة.

راقبته صوفي بصمت، وكأنها تحفظ تفاصيله في ذاكرتها: حركة يده، انحناءة ظهره، ضحكته حين سقطت حبة فراولة من السلة.

قالت في نفسها :

كيف لرجلٍ بهذا البساط أن يحمل كل هذا السمو ؟

وكان في داخلها صوتٌ آخر، أكثر جرأة، يهمس :

أهذا هو الرجل الذي أحب ؟ أم أنني أحب الصورة التي خلقتها عنه ؟

+

وفي طريق العودة، سارت إلى جواره.

لم تتحدث كثيرًا، لكن الصمت بينهما لم يكن فراغًا، بل امتلاءً غريبًا. شعرت أن يدها تشتاق لأن تمتد، أن تلمس يده، أن تتأكد من أنه حقيقي، لا حلم.

لكنها لم تفعل.

قالت في سرها :

لو أمسكت بيده، هل كان سيبتسم ؟ أم كان سيسحبها بهدوء، كما يُسحب وهمٌ صغير ؟

+

حين جاء وقت النوم، بدا المشهد بسيطًا، لكنه حمل في طياته ما لم تدركه صوفي إلا لاحقًا.

قال الكونت بابتسامته الهادئة :

تعاليا أريكما غرفة النوم المخصصة لكما.

قفزت تانيا فرحًا :

غرفة كاملة لي ولصوفي ؟ ! لكنك قلت إن الطابق العلوي فيه أربع غرف فقط !

أجاب :

واحدة لوالديّ، والثانية لليزا، والثالثة لعمتي والسيدة بتروفنا، والرابعة لكما.

سألته صوفي، وفي صوتها دهشةٌ لم تستطع إخفاءها :

وأنت ؟ أين ستنام ؟

قال ببساطة :

على أريكة في الطابق السفلي.

سكتت لحظة، ثم قالت :

في قاعة الطعام ؟ هذا غير ممكن،

ضحك، وكانت ضحكته خفيفة كنسمةٍ تمر بين أوراق الشجر: ليست غرفتي، ولن تجدا فيها إلا فراشًا واحدًا. سأعد لكما ما يكفي، ولا تقلقي.

في تلك اللحظة، حدث شيءٌ في داخل صوفي.

لم يكن موقفًا عظيمًا في ظاهره، لكنه كشف لها شيئًا أعمق: هذا الرجل الذي تظنه فوق الجميع، يختار أن يكون دونهم، ليمنحهم الراحة.

تذكرت قولًا سمعته قديمًا :

من تواضع لله رفعه، ومن ترفع وضعه الله.

وشعرت أن هذا القول قد تجسد أمامها، لا في كلمات، بل في فعلٍ بسيط.

+

ساعد الكونت الخادمة دونياشا في إعداد الفراش. كان ينحني، ويرتب الوسائد، ويهتم بأدق التفاصيل، كأنه يؤدي مهمةً مقدسة.

وقفت صوفي تراقبه، وقلبها يضج بأسئلةٍ لا جواب لها.

قالت في داخلها :

لماذا يفعل هذا ؟ أهو واجب ؟ أم طبع ؟ أم أنه لا يدرك كم هو مختلف عن الآخرين ؟

ثم جاءها صوتها الداخلي، أكثر هدوءًا هذه المرة :

ربما لأنه لا يحاول أن يكون شيئًا، بل هو كذلك ببساطة.

+

حين استلقت على الكرسي الطويل، لم يكن مريحًا. كان صلبًا، ضيقًا، لا يصلح لنومٍ عميق. لكنها لم تشعر بالضيق.

بل على العكس، شعرت بسعادةٍ غامرة، كأنها تملك العالم.

قالت في يومياتها :

لم يكن أحد أسعد مني تلك الليلة، رغم أن جسدي لم يعرف الراحة. فقد كان هو من اختار لي هذا المكان، وكان ذلك يكفي.

+

وفي تلك الليلة، لم تنم صوفي سريعًا.

كانت مستيقظة، تنصت إلى صوت الليل، وإلى صوت قلبها.

قالت في داخلها :

ما هذا الذي أشعر به ؟ أهو حب ؟ أم افتتان ؟ أم مجرد وهمٍ جميل ؟

ثم تذكرت بيتًا من الشعر:

أحبك لا أدري حدود محبتي

أفيك الهوى أم في خيالي تجسدا

ابتسمت في الظلام، وكأنها وجدت جوابًا مؤقتًا.

+

كان الحوار الحقيقي، في تلك الليلة، ليس بينها وبينه، بل بينها وبين نفسها.

جزءٌ منها كان يقول :

إنه لا يراك كما ترينه، لا ترفعي سقف أحلامك.

وجزءٌ آخر يرد :

وهل الحب صفقة؟ هل يُشترط أن يُرد ليكون صادقًا؟

وفي لحظة صفاء، أدركت شيئًا بسيطًا وعميقًا :

أن ما تعيشه الآن، بكل ما فيه من حيرةٍ وفرح، هو جزء من الحياة، لا ينبغي لها أن تفسده بالسؤال.

ومع اقتراب الفجر، غفت أخيرًا.

لم يكن نومها عميقًا، لكنه كان كافيًا ليحفظ لها تلك اللحظة، تلك الزيارة، وذلك الشعور الذي لم يتكرر.

+

وهكذا، لم تكن دار الضيعة مجرد مكان، بل كانت مسرحًا لتحولٍ داخلي.

هناك، بين بساطة الخشب، ورائحة اللحم المدخن، وصوت الضحك الخافت، اكتشفت صوفي أن القلب لا يحتاج إلى القصور ليحب، ولا إلى الراحة ليكون سعيدًا.

يكفيه أن يجد من يرى فيه إنسانًا.

ويكفيه، أحيانًا، أن يرى في الآخر ما يجعله يؤمن بأن العالم، رغم كل خساراته، لا يزال جديرًا بأن يُحب.

+

وفي خاتمة يومياتها، كتبت :

لم تكن أجمل ليلة في حياتي لأنها كانت مريحة، بل لأنها كانت صادقة. ولعل الصدق، في زمن الزيف، هو أندر أشكال السعادة.

ثم أضافت، كأنها تخاطب نفسها بعد سنين :

يمضي الإنسان في حياته يبحث عن المعاني الكبيرة، ثم يكتشف، متأخرًا، أن أعظمها كان يختبئ في لحظةٍ صغيرة، حين نام الكونت على الأريكة.

ليلة انكشاف القلب بين العقل والقدر

عادت أسرة أندريفنا إلى ضيعتها كما تعود الطيور إلى أعشاشها بعد موسم طويل من التيه، وكان في عودتهم شيء من السكينة الممزوجة بقلق خفي، كأن الأرض التي يعرفونها جيدًا تخبئ لهم هذه المرة سرًا لم يألفوه من قبل. لم يكن أحد، لا الأم ولا ليزا ولا حتى تانيا، يتوقع أن يلحق بهم الكونت تولستوي بعد يومين فقط، كأن قوة خفية تسوقه إليهم سوقًا، أو كأن قلبه قد سبق جسده إلى هناك، فلم يملك إلا أن يلحق به.

في صباح اليوم الثالث، جلست تانيا إلى مكتبها الصغير، حيث اعتادت أن تودع أسرارها في صفحات يومياتها، وكتبت بخط متوتر ولكنه واضح :

أحسست منذ اللحظة الأولى أنه لم يأتِ إلا من أجل صوفي... لا من أجلنا جميعًا كما يدّعي. كان في عينيه شيء من العجلة، من الترقب، من ذلك الارتباك الذي لا يليق برجل مثله. ظننت أنه

سيطلب يدها من أبي مباشرة، لكنه لم يفعل. لم يكن جبانًا، لكنه كان... مترددًا، كأن في قلبه معركة لم تُحسم بعد.

توقفت لحظة، ثم أضافت :

بعد ساعات من زيارته، أدركت أنه يتحين الفرص ليخلو بها. لم يكن يريد الحديث أمامنا، بل كان يبحث عن لحظة صافية، لحظة تسقط فيها الحواجز، فيقول ما عجز عنه في حضرة الجميع. كان يريد أن يصارحها... أو ربما كان يخشى أن يسمع منها ما لا يحتمله.

ثم أغلقت عينيها، كأنها تستعيد مشهدًا دقيقًا :

كيف لم يفهم أنها تحبه؟ كيف لرجل كتب عن أدق انفعالات النفس البشرية، أن يعجز عن قراءة نظرة واحدة صادقة؟ أليس هو من قال يومًا :إن أعظم المآسي أن نعجز عن قول ما نشعر به؟

+

أما هو، فكان في غرفته تلك الليلة، يجلس أمام شمعة تتراقص، كأنها تعكس اضطرابه الداخلي. فتح دفتره، وكتب :

كنت أريد أن أعرف... لا، كنت أحتاج أن أعرف حقيقة عواطف صوفيا نحوي. إنها لا تفارقني بنظراتها، ولكن النظرات قد تخدع. الفتيات في مثل سنها يعشن في دوامة من الانفعالات، وقد يظنن الاهتمام حبًا، والفضول تعلقًا.

توقف، ثم ابتسم ابتسامة مريرة :

يا إلهي، ما أبعد الفرق بيني وبينها. أنا رجل عبرت سنواته كأنها قرون، وهي زهرة لم تفتح بعد بكاملها. ماذا لو رفضتني ؟ هل سيكون ذلك رفضًا لي... أم لعمري ؟

ثم مال إلى الوراء، كأن ثقل الفكرة أرهقه :

لو كان هناك شاب قريب منها في السن، هل كانت ستلتفت إليّ ؟ أم كنت سأكون مجرد اسم كبير يمر في حياتها مرور الغريب ؟

وصمت قليلًا، ثم كتب :

وماذا يدفع شابة جميلة، رقيقة، مثل صوفيا، نحو رجل قال الناس جميعًا إن أنفه كالبطيخة المجرورة في وجه لا يحمل من الوسامة شيئًا ؟ أهو القلب ؟ أم وهم القلب ؟

ثم ختم :

كان يجب أن أسألها. لا مجال للتأجيل. فالقلب إذا طال انتظاره، أفسدته الشكوك.

+

أما ليزا، أخت صوفيا، فقد روت القصة من زاوية أخرى، زاوية المراقب الذي يرى ما لا يراه الأبطال أنفسهم. قالت :

كنت أعلم، كما تعلم تانيا، أن شيئًا ما سيحدث تلك الليلة. كان في الهواء توتر خفيف، كأن الجدران نفسها تترقب. فذهبت إلى غرفة الموسيقى في الطابق الثاني، لا لأعزف، بل لأفسح لهما المجال.

ثم ضحكت بخفة :

ومن عجب أنهما اختارا تلك الغرفة بالذات ! كأن القدر كان ينسج خيوطه هناك.

وتابعت :

ما إن دخلا حتى اختبأت خلف البيانو. لم يرَياني. كنت أراقب بصمت، كأنني شاهدة على مسرحية لا يجوز لي التدخل فيها.

ثم انخفض صوتها :

توقعت أن يمسك بيدها فورًا، أن يتكلم بأسلوبه الأدبي، أن يفيض بالكلمات كما يفعل في رواياته... لكنه لم يفعل.

توقفت، ثم قالت :

كان كصبي صغير. نعم، صبي ! يقف مرتبكًا أمام أول فتاة في حياته. وقف أمام الطاولة، ينظر إليها، وكأن الكلمات قد خانته.

ثم استرجعت الحوار :

آنسة صوفيا... هل تستطيعين تكوين جملة كاملة إذا كتبت لك الحرف الأول من كلماتها ؟

ابتسمت ليزا :

يا له من مدخل غريب ! لكن صوفي، بطبيعتها المرحة، لم تتردد.

آه، لعبة الحروف ! أجيدها يا كونت. بل أحذرك، فأنا أبرع من الجميع !

حسنًا... هل معك قلم ؟

دائمًا.

ثم سألها :

أأبدأ أنا، أم تبدئين أنت ؟

ابدأ أنت، لكن ما الرهان؟

صمت لحظة، ثم قال :

الرهان هو... حياتي.

تقول ليزا :

عند هذه الكلمة، تغير كل شيء. لم تعد اللعبة لعبة. صار الهواء أثقل، وصار الصمت أعمق.

سمعت صوفيا تقول بصوت خافت :

حياتك ؟

نعم.

ثم بدأ يعدد الحروف :

ش... ح... س... س... هـ... ت... م.

تقول ليزا :

رأيت صوفيا تبتعد قليلًا، كأنها تجمع نفسها. كانت تفكر، نعم، لكنها كانت أيضًا تشعر.

ثم قالت :

أمهلني لحظة... المهم ألا تكون من رواياتك، فهي جميلة... لكنها غامضة.

ابتسم وقال :

ـــلن يكون أحد أسعد مني إذا توصلتِ إليها. تذكري... حياتي هي الرهان.

+

في تلك اللحظة، دخلت صوفيا في عالمها الداخلي، عالم لا يراه أحد. كانت الحروف تدور في ذهنها، لكنها لم تكن مجرد حروف... كانت اعترافًا مؤجلًا، رسالة مشفرة، قلبًا يحاول أن يتكلم دون أن ينكشف.

فكرت :

ش... شبابك ؟ أم شيخوختي ؟ ح... حبي ؟ أم حيرتي ؟ س... سعادتي ؟ أم سؤالي ؟

ثم شعرت بشيء يتشكل، كأن المعنى يخرج من بين الضباب.

رفعت رأسها، وصوتها يرتجف :

وجدتها...

ثم قالت :

شبابك وحقك في السعادة يذكراني بقسوة بفارق السن... سعادة كهذه، هل تتحقق لمثلي ؟

تقول ليزا :

كان صوتها مخنوقًا بالعاطفة، كأن الكلمات خرجت من قلبها لا من عقلها.

ثم رأت ما لم تتوقعه :

أمسكت بيده. لم تقل شيئًا. لكن يدها قالت كل شيء.

أما هو، فكان في تلك اللحظة بين نارين: نار الخوف، ونار الرجاء. شعر أن العالم كله توقف عند تلك اللمسة.

ثم قال بصوت منخفض :

صوفي... إن أسرتك تخطئ في فهم السبب وراء زياراتي. أمك، على وجه الخصوص، تظن أنني أريد ليزا...

توقف، ثم نظر في عينيها:

لكن الحقيقة... أنكِ أنتِ السبب.

+

في تلك اللحظة، لم يكن الحوار مجرد كلمات، بل كان لقاء روحين، كل منهما يخشى أن ينكسر إذا تكلم، ويخشى أن يضيع إذا صمت.

قالت في داخلها :

أهذا هو الحب ؟ هذا الارتباك الجميل ؟ هذا الخوف اللذيذ ؟

وتذكرت قولًا قديمًا :

إذا أحببت، خفت... وإذا خفت، صدقت.

أما هو، ففكر:

هل أستحقها ؟ أم أنني أظلمها بحبي ؟

وتردد في ذهنه بيت شعر :

وما الحب إلا للحبيب الأولِ وما العمر إلا مرةً لا تُبدَّلُ

ثم نظر إليها، وقال :

أنا لا أطلب منك جوابًا الآن... فقط أريد أن أعرف: هل ما أشعر به... تجدين له صدى في قلبك ؟

صمتت، لكن صمتها كان أبلغ من ألف جواب.

+

تلك الليلة، لم تكن مجرد لقاء، بل كانت نقطة تحول، لحظة انكشاف، حيث تجرأ القلب أن يتكلم، ولو بلغة الحروف.

وكما قال الحكماء :

أصدق الكلام ما خرج من قلب خائف.

وفي تلك الغرفة، بين البيانو والصمت، وُلدت قصة... لم تُكتب بالحبر، بل بالنبض.

القلب قبل الجسد

حكاية صوفيا وتولستوي بين الحب والهروب

تقول صوفي في مذكراتها، وقد خطّت كلماتها بمدادٍ من رجفة القلب لا من حبر القلم :

أدركتُ - أخيرًا، بعد صراعٍ مرير بين الشك واليقين - أنه يحبني أنا وحدي. لم يكن ذلك الإدراك فكرةً عابرة، بل كان أشبه بانفجار داخلي، كأن روحي انشقت عن يقينٍ قديمٍ ظلّ حبيسًا في أعماقي. كان قلبي يدق بعنفٍ يكاد يخلخل ضلوعي، وامتزجت الحقيقة بالوهم حتى صرتُ لا أميّز بينهما. شيءٌ ما كان يصيح في داخلي، بصوتٍ لا يُسمع إلا في الأعماق :

أيتها الغبية، إنه يحبكِ أنتِ، أنتِ وحدكِ، أنتِ ولا أحد سواكِ

كانت تلك الكلمات كالسحر، تُعيد تشكيل العالم من حولي، وتكسو كل شيءٍ بلونٍ واحد: لون الرجاء.

أوشكتُ أن أُلقي بنفسي بين ذراعيه، أن أختصر المسافات الطويلة التي صنعتها التقاليد والخوف، أن أقول له دون كلمات: ها أنا ذا. ولكن، كما لو أن القدر لا يرضى أن تكتمل اللحظات بسهولة، انفتح باب القاعة فجأة، ودخلت أمي.

كان حضورها صارمًا، كقانونٍ لا يُناقش. نظرت إليّ بعينٍ لا تعرف التردد، وقالت بصوتٍ يحمل الأمر لا الطلب :

صوفي، اذهبي إلى غرفتكِ على الفور. هذه ساعة النوم .

تراجعتُ، وكأنني أُنتزع من حلمٍ لم يكتمل. لم أجادل، لكن في داخلي كانت معركة لا تهدأ.

+

في الصباح، حين انسلّ الضوء إلى غرفتي كضيفٍ خجول، جمعتُ شجاعتي، وذهبتُ إلى أمي. كنتُ أعلم أن ما سأقوله سيغيّر كل شيء.

قلتُ، وأنا أحاول أن أُمسك بخيط صوتي المرتجف :

أمّاه، أرجوكِ أن تستمعي إليّ باهتمام. هناك من يظن أنني لستُ المقصودة بزيارات ليف، أما الحقيقة، يا أمّاه، فهي أنه لا يأتي إلا من أجلي. أنا، أنا التي يريدها زوجة له.

نظرت إليّ أمي طويلاً، ثم ابتسمت ابتسامة باردة، كأنها تقطع الطريق على أي وهمٍ قد ينمو.

صوفي، لم أتوقع أن أسمع منكِ هذا الهراء. أنتِ واهمة تمامًا، يا صغيرتي. إنه لا يريد سوى ليزا، وهذا ما أريده أنا وأبوكِ أيضًا .

سقطت كلماتها عليّ كحجارةٍ ثقيلة. لم يكن الألم في رفضها فحسب، بل في يقينها الذي بدا وكأنه لا يقبل النقاش.

عدتُ إلى غرفتي، وأنا أجرّ خلفي خيبةً لم أعرف مثلها من قبل.

لم أحدثه عما دار بيني وبين أمي. كيف أقول له إن العالم يقف ضدي؟ كيف أُخبره أن حبي له، الذي بدا لي واضحًا كالشمس، لا يراه غيري ؟

في اليوم التالي، على مائدة الغداء، جلسنا جميعًا كأن شيئًا لم يكن. كان هو هناك، هادئًا، كعادته، يحمل في عينيه ذلك العمق الذي يُخيف ويُغري في آن.

وفي لحظةٍ خاطفة، دسّ في يدي رسالة داخل مظروف.

ارتجفتُ. شعرتُ وكأن العالم كله انحصر في تلك الورقة الصغيرة.

ما إن انتهت المائدة، حتى أسرعتُ إلى غرفتي. أغلقت الباب خلفي، ووقفت لحظةً ألتقط أنفاسي، ثم مزّقتُ المظروف بعصبيةٍ مرتعشة.

قرأت :

أخبريني بكل أمانة، ويدكِ فوق قلبكِ، ودون عجلة - نعم، دون عجلة بحق السماء - أخبريني يا صوفي :

هل تقبلين أن تكوني زوجتي ؟

إذا كنتِ تقبلين هذا من كل قلبكِ، بأمانةٍ ودون تردد، وبعد تفكيرٍ عميق، فقولي : نعم.

أما إذا كان في داخلكِ أدنى شك في قدرتكِ على الحياة معي طوال العمر، فقولي : لا،

فالموت أحب إليّ من الحياة مع شخصٍ أحبه كل هذا الحب، ولا يحبني .

توقفتُ عند الكلمة الأخيرة. شعرتُ أن قلبي قد انكشف، وأن كل ما أخفيته صار مكتوبًا أمامي.

همستُ لنفسي :

وهل يمكن لقلبٍ عرف هذا الحب أن يقول لا ؟

وفي تلك اللحظة، ترددت في داخلي أبياتٌ كأنها خرجت من روحي:

أُحِبُّكَ حُبًّا لو يفيضُ قليلُهُ

على الخلقِ ماتَ الخلقُ من شدّةِ الوجدِ

فكيفَ بقلبي وهو يحملُ كلَّهُ

ويُخفيهِ خوفًا من جفاءٍ ومن صَدِّ

+

لم أتمالك نفسي. خرجتُ مسرعة، كأنني أركض نحو قدري.

فوجئ الجالسون على المائدة بي أقتحم القاعة، ألهث، ويدي تمسك الرسالة والمظروف كأنهما شهادة حياة.

وقف هو.

تلاقينا في نظرةٍ طويلة، صامتة، لكنها قالت كل شيء.

ثم قال، بصوتٍ هادئٍ بطيء، كأنه يخشى أن يوقظ الحلم :

صوفيا أندريفنا، هل تقبلين أن تكوني زوجتي؟ نعم أم لا ؟

تحشرج صوتي، وغرقت عيناي بدموعٍ لم أعرف هل هي دموع خوف أم فرح.

قلتُ، وأنا أرتجف :

نعم، نعم، نعم، أسمعتم جميعًا ؟ نعم !

كان ذلك الإعلان أشبه بولادة جديدة. كأنني خرجتُ من ضيق العالم إلى سعته.

+

اثنان وأربعون عامًا، ليست رقمًا، بل عمرًا من التفاصيل. من الأيام التي تشبه بعضها، والليالي التي تحمل ألف حكاية.

كان حبنا نادرًا، كجوهرةٍ لا تُرى إلا مرة في العمر.

أعطاني كل حياته. لم يفكر يومًا في امرأةٍ غيري، رغم أن أجمل نساء روسيا كنّ يطاردنه أينما ذهب. كان بإمكانه أن يختار، لكنه اختارني - كل يوم، من جديد.

وأنا، ماذا أعطيته ؟

أعطيته نفسي، كاملة. كل فكرة، كل نبضة، كل خوفٍ وكل حلم. سكبتُ حياتي في كأسٍ واحدة، وقدمته له دون أن أطلب شيئًا في المقابل.

وكان يقول لي أحيانًا :

الحب يا صوفي ليس أن نرى بعضنا بلا عيوب، بل أن نحب رغم العيوب.

وكنتُ أجيبه :

بل هو أن نرى العيوب، فنحب أكثر.

+

لكن، هل يبقى الحب كما هو ؟

هنا يبدأ السؤال الذي لا يحب العشاق سماعه.

مع مرور السنوات، تغيّر شيءٌ ما. ليس الحب ذاته، بل شكله.

صار هو أكثر صمتًا، أكثر غرقًا في أفكاره. كان يعيش داخل عالمٍ لا أستطيع دخوله. عالمٍ من الفلسفة، والتأمل، والأسئلة التي لا إجابة لها.

أما أنا، فكنتُ أعيش في الواقع : في البيت، في الأطفال، في تفاصيل الحياة التي لا تنتظر التأمل.

كنتُ أريده قريبًا، وهو كان يبتعد -لا جسدًا، بل روحًا.

وفي داخلي، بدأ صوتٌ جديد :

هل لا يزال يحبكِ كما كان ؟

كنتُ أرفض هذا السؤال، لكنّه كان يعود، كظلٍ لا يختفي.

+

وفي إحدى الليالي، جلستُ وحدي، وقلت لنفسي :

ما الحب؟ أهو وعدٌ لا يتغير، أم شعورٌ يتبدل مع الزمن ؟

وتذكرتُ حكمةً قديمة :

ما كلُّ ما يتمنى المرءُ يدركُهُ

تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ

هل كنتُ أطلب المستحيل ؟ أم أن الحب نفسه يتغير، ونحن نرفض الاعتراف ؟

+

ثم جاءت الصدمة.

كان في الثانية والثمانين. شيخًا فانيًا، مريضًا، بالكاد يقوى على الحركة.

وفجأة - دون إنذار - قرر أن يغادر.

أن يترك الضيعة. أن يهرب، مني.

نعم، مني أنا، التي أحبها يومًا حتى كاد يختنق بحبه.

وقفتُ مذهولة.

سألتُ نفسي :

كيف يمكن لرجلٍ أعطاني كل حياته، أن يهرب منها في النهاية؟

كان داخلي صراعٌ مرير :

هل خنته ؟ هل خذلته ؟ أم أن الحب نفسه انتهى، دون أن يخبرنا ؟

في تلك اللحظة، غصتُ في أعماقي، أكثر من أي وقت مضى.

رأيتُ نفسي كما لم أرها من قبل: امرأةً أحبت بصدق، نعم، لكنها خافت. امرأةً أرادت أن تملك الحب، لا أن تعيشه فقط.

ربما كنتُ أُمسكه بشدة، حتى اختنق. وربما، كان هو يهرب من شيءٍ داخله، لا مني.

وفي النهاية، لم أجد جوابًا.

لكنني كتبتُ في مذكراتي :

ليس كل حبٍ ينتهي بالخيانة، بعضه ينتهي بالصمت.

وكتبتُ أيضًا :

أقسى ما في الحب، ليس أن نفقد من نحب، بل أن نفقد أنفسنا ونحن نحبه.

وهكذا، بقيتُ بين ذكرى البدايات ونهايةٍ لم أفهمها. بين « نعم » التي قلتها يومًا بكل قلبي، و« لماذا » التي لم أجد لها جوابًا حتى اليوم.